سر صندوق الألوان



مدارج



كان يوسف ومازن وبقية الأولاد في السابعة. كان البحر في رسمة يوسف أبيض تماما. لون الرمل، والقارب، والشمس، وحتى الحجر الصغير عند الشاطئ. لكن قلمه الأزرق كان قصيرا جدا؛ لم يعد يستطيع الإمساك به ليلون. قال صديقه مازن: «بحرك لم يصل بعد!» ضحك يوسف، ثم أغلق علبته. في الحصة الأخيرة غادر الأولاد إلى المكتبة مع المعلّم، البالغ خمسا وثلاثين سنة. وبعد قليل أذن ليوسف أن يرجع إلى الفصل ليحضر دفتره، فالمكتبة تقع في الغرفة المجاورة.



على طاولة الأدوات وجد صندوقا مفتوحا. أقلام طويلة، وأقلام عريضة، وثلاثة أقلام زرقاء! توقف. أحدها كان بلون البحر الذي يريده بالضبط. أخذه ورسم به خطا صغيرا على قصاصة مستعملة. كان الخط ناعما وواضحا. قرب القلم من علبته. لو وضعه فيها لأصبح بإمكانه إكمال الرسمة في البيت.

«إنهم لا يحتاجون ثلاثة أقلام زرقاء»، قال لنفسه. نظر نحو الباب. لم يكن أحد واقفا هناك.



عندئذ رأى البطاقة الملصقة بجانب الصندوق: «أدوات الفصل». تذكر يوم بحث عن مسطرته، فلم يجدها إلا في حقيبة زميل أخذها دون سؤال. لم يعجبه ذلك يومها. لف القلم بين أصابعه. كان يعرف أنه ليس له، وأن الله يعلم ما يفعل، ولو لم يره أحد من الناس. فتح علبته، ونظر إلى المكان الفارغ. ثم أغلقها. أعاد القلم إلى الصندوق، وحمل دفتره والقصاصة، ورجع إلى المكتبة.



انتظر حتى أنهى المعلّم كلامه، ثم أشار إلى القصاصة. «جربت قلما من صندوق الفصل من غير أن أستأذن. أعدته. هل يمكنني استعارته إلى الغد؟» قال المعلّم: «اسأل قبل استعمال أدوات الفصل يا يوسف. وهذه الأقلام ستبقى هنا؛ سنحتاجها صباحا.» نظر يوسف إلى قصاصته. كان يتمنى أن يقول نعم. لكنه قال: «حسنا.»



في البيت فتح الرسمة مرة أخرى. أراد أن يضعها في الدرج، ثم لاحظ أن حافة القارب لم تكتمل. أمسك القلم البني، وأكملها. أضاف حبلا، ورسم على الرمل دائرتين صغيرتين. بقي البحر أبيض. وضع الرسمة في ملفه ليحملها إلى المدرسة.

مرت أمه، وكان عمرها ثلاثا وثلاثين سنة، بجانب الطاولة، فأراها قلمه القصير. «هذا ما بقي منه!» قالت: «نضع قلما أزرق في قائمة الأدوات التي نحتاج إلى شرائها.» أخذ ورقة القائمة، وكتب فيها: «قلم أزرق». لم تتغير رسمته بعد، لكنه لم يعد يقلب علبة ألوانه كل دقيقة. أخرج دفتره من الحقيبة، وبدأ عمله الآخر. أما الملف، فقد وضعه عند الباب لئلا ينساه صباحا.



في الصباح، وجد ثلاثة أولاد عند طاولة الألوان. كان أحدهم يرسم نافذة، والثاني يلون إناء، والثالث يريد لونا للسماء. ابتعد يوسف خطوة وانتظر دوره. فالثلاثة يحتاجون الأزرق أيضا. وعندما جاءت حصة الرسم، استأذن وجلس يكمل بحره. مر القلم فوق الورقة خطا بعد خط، حتى أحاط اللون بالقارب. قال مازن: «وصل البحر!» ابتسم يوسف. وقبل أن ينظر إلى الرسمة من بعيد، أعاد القلم إلى الصندوق. قلب الأقلام قليلا ليجد له مكانا، فبدت البطاقة من جديد. أدوات الفصل. أغلق علبته الخاصة، وحمل رسمته المكتملة بيديه.

مصدر الإلهام وحدوده

هذه قصة معاصرة متخيلة. أشخاصها وأعمارهم وحوارهم وحادثة الأقلام ليست أخبارا تاريخية من المصدر.

مصدر المعنى: مدارج، كأنك تراه — المراقبة، الصفحات الفعلية 13 و16 و35 من ملف PDF. المعنى هو علم الله بأفعال العبد ورؤيته له، دون تخيل صورة لله.

قوبلت هذه الصفحات بصورها الفعلية. وردت الصفحة17 في بطاقة النسخة القديمة؛ لم نعتمدها بدلا من16 ولم ندع تحقيقها. لا تتضمن القصة اقتباسا قرآنيا أو حديثيا مباشرا.

madarej.org/books/kaannaka-tarahu-muraqabah/